((إنك ميت وإنهم ميتون))

عبدالله بن محمد بن صالح حفني

إمام وخطيب جامع هيا العساف بالجميزة

الأولى

خَطَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: (( يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ طُولُ الْأَمَلِ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى، فَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ، وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيُضِلُّ عَنِ الْحَقِّ )) شعب الإيمان (13/173) .

موعظة بليغة نطق بها حكيم بليغ عالم بمجريات الحياة فقد طال الأمل، وكثرت الأماني، وغاب حديث الآخرة عن النفوس، وتعلقت النفوس بمتاع الحياة، وحطامها، فترى الرجل منا كلما تقدم به العمر أقبل على الدنيا حرصا وعلى المال كَلَبَاً ، ورَسُول اللَّهِ يقول : ((لاَ يَزَالُ قَلْبُ الكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الأَمَلِ)) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رقم 6420 **.**

فتعالوا بنا نؤمن ساعة، فالزمان الصعب، والمعين قليل، والعمر قصير، والأجل قريب، والسفر بعيد، والزاد قليل، والرحيل مؤكد ﭽ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﭼ الزمر: ٣٠

وكلنا ما بين كل عشية وضحاها نرى جنازة تحمل على أكتاف الرجال ؟ ﭽ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﭼ الرحمن: ٢٦

أما تعرفون رجلا كان إذا مشى رج الأرض، وإن تكلم ملأ الأسماع، وإن غضب روّع القلوب، جاءت عليه لحظة فإذا هو جسد بلا روح، وعين بلا بصر ؟

أما سمعتم بفتاة مكة في الأسبوع الماضي وقد زينوها لزوجها وعرسها وهي تفيض بجمالها وشبابها ولباسها فجاءت عليها لحظة فإذا هي تغرغر روحها وتزهق أنفاسها، وتغيب شمسها، وإذا هي بين أطباق الثرى ؟

أما قرأتم في التاريخ عن جبار وطاغية كانت ترتجف من خوفه قلوب الأبطال، ويرتاع من هيبته فحول الرجال قوله إن قال شرع وأمره إن أمر قضاء جاءت عليه لحظة فصار جسده ترابا تطأه الأقدام ؟

هل سمعتم بشاب يعيش زهرة الشباب ولذة الشهوة وقوة البدن قد تعلق قلبه بزهرة الحياة الدنيا وطول الأمل جاءت عليه لحظة فإذا هو نسيا منسيا ؟

كلنا يموت ويبقى الحي الذي لا يموت .

نارُ هَذا المَوتِ في الناسِ طُرّاً كُلَّ يَــومٍ قَـــد تَــزيــدُ التِهابــا

إِنَّـــمــــا الدُنــيـــا بَــــلاءٌ وَكَـــــــدٌّ وَاكتِئابٌ قَد يَسوقُ اِكتِئابـا

أَيــُّهــا المــَرءُ الـَّذي قَد أَبى أَن يَهجُرَ اللَــهوَ بِها وَالشَــبابـا

أَنـتَ في دارٍ تَرى المَوتَ فيها مُستَشيطاً قَد أَذَلَّ الرِقابـا

أَبَــتِ الدُنـيــا عَــلى كُــلِّ حَيٍّ آخِـــرَ الأَيّــــــامِ إِلّا ذَهــابا

إِنَّــمــا تَــنــفي الحَــيــاةُ المَنــايــا مِثلَما يَنفي المَشيبُ الشَبابا

مات فلان كلمة نسمعها في كل حين وآن ، قال عمر بن الخطاب : مات فلان ومات فلان وغدا يقال مات عمر نعم غدا يقال مات فلان

تَــنــامُ وَلَــم تَنَم عَنكَ المَنايــا تَنَــبَّــه لِــلــمَــنِــيَّــةِ يــا نَـــؤومُ

تَموتُ غَداً وَأَنتَ قَريرُ عَينٍ مِنَ الغَفَلاتِ في لُجَجٍ تَعومُ

لَهَوتَ عَنِ الفَناءِ وَأَنتَ تَفنى وَمـا حَيٌّ عَلى الدُنيــا يَــدومُ

الحياة مهما طالت أيامها وتتابعت أعوامها لا بد من ساعة آتية لا محيص عنها يقف العبد عندها على أمر كبار وكأس يدار فيمن أقام وسار، يبني الإنسان آمالا طويلة وأحلاما عريضة وإذا بالمنية تخترق الآمال وتبدد الأحلام،

فَكَم مِن صَحيـحٍ ماتَ مِن غَيرِ عِــلَّةٍ وَكَم مِن سَقيمٍ عاشَ حيناً من الدهر

وكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً وقد نُسجت أكفانُه وهـو لا يــدري

وكم من صغار يرتجى طـول عمرهم وقد سكنت أجسـادهم ظلمة القبر

وكم من عـروسٍ زينُــوهــا لعرسـها وقـد قُبضــت أَرواحهـــم ليــلةَ القدر

يقول الحسن البصري ~: (( من لم يرتدع بالموت والقرآن ثم تناطحت جبال الدنيا بين يديه لم يرتدع )) .

يا لها من ساعة تهدم فيها اللذات وتفرق الجماعات ويكدر العيش .

جاء جبريل إلى النبي فقال في موعظة بليغة عظيمة «يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ» صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (1/201) .

قيل لبهلول وقد أقبل يوم من المقبرة من أين ؟ فقال: من عسكر الموتى ! فقيل ما قلت وما قالوا ؟ فقال : سألتهم متى يرحلون ؟ فقالوا : ننتظر قدومكم ثم نرتحل .

عبد الله إن للعمر أيام وإن للحياة نهاية ولا ندري والله متى ينقضي العمر ومتى تبلغ الحياة نهايتها ؟ قال تعالى ﭽ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃﰄ ﭼ لقمان: ٣٤ لكن الجميع يعلم أن ذلك لن يطول فالموت قادم الموت قادم أيها الشباب الموت قادم أيها الشيب قادم للأغنياء والفقراء قادم للظالمين والمظلومين قادم للأقوياء والضعفاء والرؤساء .

الموت قريب لمن بلغ الستين ودنا من السبعين .

وأيم الله ليوشكن الباقي منا ومنكم أن يبلى ..

وأيم الله ليوشكن الحي منا ومنكم أن يموت ..

وأيم الله ليوشكن الشباب أن يفنى ﭽ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭼ الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧

يا قومنا اكثروا من ذكر هادم اللذات ، أكثروا من ذكر هادم اللذات .

بهذا أوصى رسول الله يوم قال في كلمات جمعت التذكرة والذكرى: "أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادمِ اللَّذَّاتِ" أخرجه ابن ماجه في السنن (5/326) وصححه الألباني في إرواء الغليل (3/145) .

قال الغزالي ~ : نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونهم إليها فتقبلوا على اللَّهُ تَعَالَى. إحياء علوم الدين (4/450).

من ذكر الموت حق ذكره حاسب نفسه وبكى على ذنبه واناب إلى ربه

من ذكر الموت حق ذكره أقام الصلاة وآتى الزكاة وأدّى ما فرض الله وتجنّب ما حرّم الله. من ذكر الموت حق ذكره أفشى السلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام.

من ذكر الموت حق ذكره استعد للرحيل، واغتنم الصحة، والشباب قبل الحسرة والسكرات

فما نسى الموت أحدٌ إلا طغى وبغى وما غفل عن ذكر الموت امرؤٌ إلا غوى وهوى.

يا لها من ساعة ولحظة عظيمة! عبد الله أمة الله هل ذكرنا الموت والسكرات ؟

هل ذكرنا حشرجة الروح والزفرات ؟ هل تفكرنا في يوم الرحيل والمصير ؟

هل تفكرنا في ساعة الوداع الأخير ؟

ﭽ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭼ الواقعة: ٨٣ - ٨٥

أخي الحبيب أكشف عن قلبك الغشاوة ، أزل غطاء الغفلة عن قلبك، لا تكن من الغافلين لا تكن من اللاهين ، إنها لحظة لا تشبهها لحظة ، إنها ساعة يندم فيها أهل التقى فكيف بأهل الإضاعة ؟ عانى النبي من سكرة الموت فكان يقول عند موته: " لا إلهَ إلا اللهُ، إنَّ للموتِ سَكَراتٍ " . رواه البخاري رقم 4449 .

ويقول عبدالله ابْنُ عُمَرَ{ : " كَانَ رَأْسُ عُمَرَ عَلَى فَخِذِي فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَقَالَ لِي: ضَعْ رَأْسِي، قَالَ: فَوَضَعْتُهُ عَلَى الأَرْضِ، فَقَالَ: وَيْلِي وَوَيْلُ أُمِّي إِنْ لَمْ يَرْحَمْنِي رَبِّي ".

ولما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكي لذنب أعلم أني أتيته، ولكني أخاف أني أتيت شيئًا حسبته هينًا وهو عند الله عظيم.

ولما احتضر هارون الرشيد أَلْصَقَ خَدَّهُ بِالتُّرَابِ وَجَعَلَ يَقُوْلُ: يَا مَنْ لاَ يَزُولُ مُلْكُهُ ارْحَمْ مَنْ قَدْ زَالَ مُلْكُهُ. سير أعلام النبلاء (8/395) .

ما أصعبها من كلمات يقولها إنسان محتضر يودع عالما ويدنو من عالم آخر، وما أشدها من ساعات يصارع فيها المرء الموت، ويكابد الشدة والألم، كلمات وآهات بل حسرات وصرخات تخرج من القلب؛ هذه نهاية الحياة، هذه نهاية الدنيا التي نتهافت عليها .

هذه هي الدنيا التي غرقنا في ظلماتها وشهواتها، هذه هي الحقيقة التي نسيناها بل تناسيناها ، أين الآباء ؟ أين الأمهات ؟ أين الأحباب ؟ أين الأصحاب ؟ أين الأقران ؟

كانوا معنا بالأمس كانوا مثلنا يسمعون عن الموت ويقرأون عن الموت ويدخلون المقابر ويخرجون منها ولا يظنون أن الأجل قريب فما لبثوا أن جاءهم الموت فبدا لهم مالم يكونوا يحتسبون، فخرجوا من الدنيا كما دخلوها حفاة عراة فرادى؛ اللحود مساكنهم، التراب أكفانهم، الرفات جيرانهم لا يجيبون داعيا ولا يسمعون مناديا .

دخل مالك بن دينار المقابر ذات يوم، فإذا برجل يدفن، فجاء حتى وقف على القبر، فجعل ينظر إلى الرجل وهو يدفن، فجعل يقول: غداً مالك هكذا يصير، غداً هكذا مالك يصير، وليس له شيء يؤنسه في قبره؛ فلم يزل يقول ذلك حتى خر مغشياً عليه. مختصر تاريخ دمشق (24/33) .

أخي الحبيب حقا والله نحن في غفلة نحن في سكرة قتلتنا الدنيا القلوب لاهية، النفوس ساهية، نصلي على جنازة، ونحمل الجنازة، وندفن الجنازة، ونعلم يقيناً أن حامل الجنازة اليوم محمولٌ غداً ، فهل غشي علينا؟ بل هل وجلت قلوبنا ودمعت أعيننا ؟

نشكو إلى الله قسوة قلوبنا .

يا الله كم شيخا دفنا ؟ كم شابا فقدنا ؟ كم فتاة ودعنا ؟ كم ميتا حملنا ؟

قال بعض السلف : يقال لبعضنا تريد أن تموت ؟ فيقول لا فيقال له لم ؟ فيقول : حتى أتوب وأعمل صالحا فيقال له : أعمل فيقول أعمل ولا يزال يسوف ويتأخر حتى يأتيه الموت على غير توبة ولا عمل صالح .

أخي كم مرة توقفنا عن الحديث في الدنيا وتحدثنا عن الموت وسكراته والقبر وظلماته ؟

يقول سعيد بن جبير : «لَوْ فَارَقَ ذِكْرُ الْمَوْتِ قَلْبِي خَشِيتُ أَنْ يَفْسَدَ عَلَيَّ قَلْبِي» حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (4/279) .

يقول قَبِيْصَةُ: مَا جَلَسْتُ مَعَ سُفْيَانَ يَعْنِي الثَّوْرِيَّ مَجْلِسًا إِلَّا «ذَكَرَ فِيهِ الْمَوْتَ وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَكْثَرَ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ مِنْهُ» كتاب الزهد الكبير للبيهقي (1/219) .

فأين نحن من هذه المعاني ؟ أين نحن من هذه النماذج ؟

أين الخائف من الله ؟ أين الذي يخشى ويتذكر تلك الساعة ؟

أين الذي يبكي على ما مضى من عمره وحياته ؟

أين من يحاسب نفسه قبل حسرته ومماته ؟

يقول ابن الجوزي ~ : يجب على من لا يدري متى يبغته الموت أن يكون مستعدًّا، ولا يغتر بالشباب والصحة، فإن أقل من يموت الأشياخ، وأكثر من يموت الشبان، ولهذا يندر من يكبر، وقد أنشدوا.

يُعَمَّرُ وَاحِدٌ فَيَغُرُّ قَوْمًا ... وَيُنْسَي مَنْ يَمُوْتُ مِنَ الشَّبَابِ . صيد الخاطر ص206 .

الثانية

هذا هو يوم الجمعة وهو آخر يوم من أيام عام 1435ه رحل عام 1435ه، ورحل فيه آخرون، رحل فيه رجل كان يبني المجد ، وآخر يبحث في هوى النفس ، وكلاهما رحل ، رحل رجل بنى بعروسه ولم يدخل بها ، ورحل رجل بدأ في بناء بيت لم يسكنه ، رحل شاب ينتظر شهادته ووظيفته ، وفتاة تنتظر عرسها وزوجها، رحل قوم وهم غارقون في الأمنيات ، لاهون في معترك الحياة ، كانوا يظنون أن الحياة أفسح من أحلامهم ، وأكبر من أمنياتهم ، ونسوا أن الحياة الدنيا مليئة بالمفاجآت ، رحل من الدنيا من سطّر كلمته وكتب اسمه بحروف من ذهب ، وأشهد التاريخ أنه مر في ذاكرة الأيام وهذه آثاره وأقواله وأفعاله ، ورحل آخرون دون أن يعرفهم أحد ، ولدوا صغاراً ، وعاشوا صغاراً .

وهذا رسول الله يكشف عن حقيقة مشهودة من حقائق الدنيا الفانية فيقول:

«يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ» متفق عليه .

فوالله وتالله ليس للراحلين من هذه الدنيا إلا ما قدّمت أيديهم من أعمال ،

ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤﭥ ﭦ ﭧ ﭨﭩ ﭼ آل عمران: ٣٠

فالأعوام تتصرّم ، والأيام تتوالى ، والأقدار مجهولة، ولا ندري متى نقدم على الله تعالى ؟

فنسأل الله تعالى أن يجعل خير أعمارنا أواخرها وخير أعمالنا خواتمنا وخير أيامنا يوم أن نلقاه